رسالة التربية وعلم النفس، ع٦، ص ص ١ - ٣٩، الرياض (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م)

الإنسان في الإسلام
أصله، أهدافه، وظيفته

الدكتور/ أحمد فؤاد محمد عليان
أستاذ مساعد بكلية المعلمين بالرياض

مخلص البحث

يتضح من هذه الدراسة أن التصور الإسلامي عن الإنسان بكل جوانبه: خلقه، والهدف من خلقه، ووظيفته في الحياة، كان وافيًا وواضحًا كل الوضوح. ويتضح ذلك فيما يأتي:

١ - أن التربية الإسلامية ضرورة حتمية لتحقيق الإسلام كما أراده الله أن يتحقق، والتربية بهذا المعنى: تهيئة النفس الإنسانية لتحمل أمانة التكليف والقيام بوظائف الحياة. يقول تعالى: «إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا» (الأحزاب ٧٢). وهذا يعني أن تكون مصادر الإسلام هي نفسها مصادر التربية الإسلامية، وأهمها القرآن والسنة، فالإسلام قدم لنا منهجًا تربويًا متكاملاً لقضايا الإنسان في الحياة.

٢ - وضوح الأفكار التي بُني عليها نظام حياة الإنسان، وملاءمتها للفطرة العقلية والوجدانية. يتضح ذلك من خلال الآيات الداعية إلى النظر في النفس والكون يقول تعالى: «وفي أنفسكم أفلا تبصرون» (الذاريات ٢١)، ويقول سبحانه: «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها. . . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب» (ق ٦ : ٨).

٣ - أن التربية الإسلامية - وخاصة جانب العبادات منها - تربي المسلم على الطاعة الواعية لله عز وجل، والارتباط بالمجتمع ارتباطًا متينًا مبنيًا على عاطفة صادقة. فالتربية الاجتماعية الصحيحة المرتكزة على الإيمان الصحيح تنتج مجتمعًا قويًا متحضرًا مستقيمًا، سليمًا من كل انحراف.

٤ ـ أن الهدف الأصلي لخلق الإنسان في الكون هو عبادة الله، والخضوع له، والخلافه في الأرض؛ ليعمرها بتحقيق شريعة الله وطاعته وإقامة أحكامه وتنفيذ قضاياه، يقول الله تعالى: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» (الذاريات ٥٦). وإذا كانت هذه هي مهمة الإنسان الأصلية في الحياة، فإن تربيته يجب أن يكون لها الهدف نفسه، لأن التربية الإسلامية (تنمية فكرالإنسان وتنظيم سلوكه وعواطفه على أساس الدين الإسلامي) [النحلاوى (ب)].

مقدمة

الجيل المعاصر من المسلمين يواجه تحديات فكرية كثيرة، والنظريات المعروضة في سوق الأفكار عديدة، المروجون لها يستخدمون شتى الوسائل التي وصلت إليها حضارة العصر لتزيينها وجعلها مقبولة من الناس.

«وهكذا بات واجبًا على المسلمين أن يتعرفوا بكل عمق ودقة على حقيقة دينهم، وسعة جوانبه وضخامة ما يستطيع أن يقدم للمسلمين والإنسانية جمعاء، وما لم يفعل المسلمون ذلك اهتزت قواعد الإيمان في قلوبهم وتزعزت مبادىء الإسلام في نفوسهم» [عبدالكريم، ص ٥].

لقد انتشرت بين المسلمين وغير المسلمين آراء وأفكار لا تتفق مع الإسلام، ولا تلتقي معه في مبادئه وأهدافه، ومن هذه الأفكار: فكرة فصل الدين وإبعاده عن شؤون الحياة، وهذه الفكرة لا تنطبق على الإسلام، فالإسلام ليس فيه حدود بين الدين والحياة، فالإسلام دين الحياة الإنسانية بكل ما ينشأ عنها من ضروب النشاط والفعالية.

إن البشرية في حاجة إلى أن تعرف الإسلام على حقيقته في حاجة إلى أن تعرف الشريعة الإسلامية والمبادىء الإسلامية «في حاجة إلى نظامنا الاجتماعي الذي يكفل الكفاية لكل فرد ويكفل الكرامة لكل إنسان ويكفل سلام الضمير وسلام البيت وسلام المجتمع كما يكفل السلام الدولي العام»[سيد قطب، ص ١٢].

وقد كان خلق الإنسان والهدف من خلقه ووظيفته محور الجدل بين أصحاب الفكر في العصر الحديث: فمن قائل إن أصله قرد، ومن قائل إن الإنسان عملة (اقتصادية) في سوق الصناعة والتجارة، وهناك النظرية الماركسية التي جعلت الإنسان ترسًا في آلة وهناك النظرية الفاشية التي قسمت الإنسان إلى سيد وعبد وعلى الإنسان العبد أن يخضع للإنسان

السيد، وهناك الرأسمالية التي فرقت بين الناس فجعلتهم طبقات. وإن المسلمين إذا تدبروا القرآن والسنة وتفهموا معانيهما، حصنوا أنفسهم ضد هذه الأفكار وتلك النظريات، فالإسلام بتعاليمه دين وسط لا إفراط فيه ولا تفريط، حفظ للإنسان كرامته وشخصيته وحقوقه «وكذلك جعلناكم أمة وسطا» (البقرة ١٤٣).

وبالتمسك بالإسلام والتحصن به تكون للمسلمين شخصيتهم المستقلة، وثقافتهم المستقلة، فالمسلمون سادوا الدنيا عندما كانوا يسيرون على المنهج الصحيح للإسلام وتخلفوا وضعفوا عندما بعدوا عن المنهج الإسلامي الصحيح.

مشكلة البحث

لما كثر الاتجاه نحو الغرب والشرق في كل ما هو جديد في التعليم وغيره، وغض الطرف عما في الإسلام من موضوعات وتشريعات تحدد للإنسان طريقة، مع أن القرآن ـ وهو المصدر الأول للتشريع في الإسلام ـ قد وسع كل شيء ولا ترك حاجة فيها نفع للإنسان من أمور الإنسان إلا أنزل قضاءها فيه، يقول الله ـ تعالى ـ «ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين» (النحل، آيه ٨٩).

ولما كان يعز على كل مسلم غيور أن يرى تقليد بعض المسلمين في مجريات حياتهم الدينية والدنيوية للتعاليم والتربية الغربية، غافلين عن المصدر الحقيقي الذي يمكنهم أن يهتدوا به في حياتهم وهو القرآن والسنة، وعار على المسلمين أن يتبعوا غيرهم، ولديهم ما يهتدون به، فيكون حالهم كمن يغمض عينيه عن الحقيقة فلا يتعرفها ولا يهتدي إليها.

فالتربية الغربية لم تحقق للإنسان معرفة صلته بالكون، ولا معرفة أصله، ولا معرفة مصيره بعد زوال الحياة، ولا العمل على جعل حياته منسجمة مع هذه الأمور التي فُطر الإنسان على تفقدها وطلب معرفتها، وهكذا تركت الناس يعيشون في قلق وحيرة من هذا التساؤل هو علاقة الإنسان بالكون وقواه، وسبب وجوده فيه [النحلاوي (ا)، ص ١٤].

لهذا فإن التأصيل الإسلامي لكل مجريات حياتنا، والاعتماد على مصادر التشريع الإسلامي سيكون هو السبيل الأوحد والأمثل؛ لتحقيق الرقي والحضارة والتقدم.

والتاريخ يؤكد لنا أن الأمة التي قادت الإنسانية إلى العلم والحرية والنور، ووضعت أسس الحضارة التي تنعم بها البشرية هي الأمة الإسلامية.

ويشهد المنصفون من المؤرخين الغربيين بذلك، فهذه مقولة المؤرخ الفرنسي (سيديو) في كتابه (خلاصة تاريخ العرب، ص. ٩٧): «ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فربط علائق المودة بين قبائل العرب... وانتشر نور العلم والتمدن بالشرق والغرب، وأهل أوروبا إذاك في ظلمة القرون الوسطى... ولاتزال إلى الآن. نرى آثاره حين نبحث عن مبادىء ما نحن عليه من العلوم الأوروبية... وبذل العرب همتهم في الاشتغال بجمع ما ابتكرته الأفهام البشرية من العلوم والفنون، واشتهروا في غالب البلاد ـ وخصوصًا البلاد النصرانية ـ من أوروبا بابتكارات تدل على أنهم أئمتنا في المعارف [النحلاوى، ص١٤، ١٥].

من خلال كل ذلك شعر الباحث بالمشكلة المتمثلة في كيفية تناول الإسلام للإنسان، ويتفرغ من هذه المشكلة الأسئلة الآتية:

أسئلة البحث

١ ـ ما أصل الإنسان في الإسلام؟
٢ ـ ما الهدف من خلق الإنسان في كما بينه الإسلام؟
٣ ـ ما الآثار التربوية لكل هدف من أهداف خلق الإنسان؟
٤ ـ ما وظيفة الإنسان في الحياة كما حددها الإسلام؟
٥ ـ ما الآثار التربوية لكل وظيفة من وظائف الإنسان في الحياة؟

حدود البحث

يتناول البحث ما ورد عن الإنسان (أصله، أهدافه، وظيفته) في القرآن الكريم وتفسيره، والسنة المطهره.

خطوات البحث

يحاول الباحث الإجابة عن الأسئلة السابقة فتناول ما ورد في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، من إشارات إلى أصل خلق الإنسان، والآيات التي حددت وظيفة الإنسان في الحياة، معتمدًا على الآتي:

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ كتب السنة.
٣ ـ كتب التفسير المختلفة.
٤ ـ اراء العلماء (القدماء والمعاصرين) الذين تعرضوا لهذه القضايا.

أهمية البحث

* يسهم هذا البحث إسهامًا متواضعًا في الكشف عن النظرة الإسلامية للإنسان في وقت تأثر فيه كثير من الباحثين والعلماء بالعلوم الغربية والنظريات المادية والآراء التي تبعد بالإنسان عن عقيدته.
* معرفة رأى الإسلام في القضايا السابقة، يعيدنا إلى المنبع الفياض الذي لا يغيض، فتشرق قلوبنا بنور الإيمان فنسعد في الدارين.
* التسمك بما في الكتاب والسنة يحفظنا من الضياع، ويقينا من الزلل، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ إذ يقول: «وإني قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله» (رواه أبو داود في سننه في كتاب المناسك حـ ١ باب ٥٦ ص ٥٨٨).

أصل الإنسان في الإسلام

البشر والناس والإنس والإنسان في القرآن

الإنسان في القرآن الكريم غير البشر، لأن البشرية تعني الناحية المادية التي تعتمد على الأكل والشرب، وفيها يتساوى بنو آدم كلهم ويتشابهون.

وقد ورد لفظ البشر في كثير من الآيات القرآنية تتكلم عن بشرية الرسل والأنبياء.

- «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد. .» (الكهف ١١٠).
- «هل هذا البشر مثلكم أفتاتون السحر وأنتم تبصرون» (الأنبياء ٣).
- «قل سبحان ربي هل كنت إلا بشر رسولا» (الإسراء ٩٩٣).

وقد ورد مثل هذا في سور هود ٢٧، إبراهيم ١٠، الأنبياء ٢٤، الفرقان ٢٠، الشوري ٢١.

والإنسان في القرآن غير الناس فلفظ الناس يأتي في القرآن للدلالة على السلالة الآدمية:

- «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة. .» (النساء ١).
- «ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى. .» (الحجرات ١٣).

وقد ورد مثل هذا في نحو مائتين وأربعين آية من القرآن الكريم.

والإنسان في القرآن غير الإنس: فلفظ الإنس يأتي دائما في مقابل لفظ الجن:

- «وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن. .» (الأنعام ١١٢).
- «وقال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار. .» (الأعراف ٣٨).
- «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» (الذاريات ٥٦).

وقد ورد مثل هذا في سور الأنعام ١٢٨، ١٣٠، الأعراف ١٧٩، الإسراء ٨٨، النمل ١٧، فصلت ٢٥، ٢٩، الأحقاف ١٨، الجن ٥، ٦، الرحمن ٣٣، ٣٩، ٥٦، ٧٤، [عبدالرحمن، ص ص ٨ - ١٥].

أما لفظ الإنسان فمشتق من (أنِس) به وإليه - أنسا - سكن إليه، وذهبت به وحشته. . . . وآنس فلانًا إيناسًا: لاطفه وأزال وحشته. . . والإنسان الكائن الحي المفكر (ج) أناسي. [المعجم الوسيط جـ ١، مادة أنس].

والإنسانية ارتقاء يفوق المادية والإنسان غير المتوحش ارتقاء إلى الدرجة التي تجعله مؤهلاً لأن يكون خليفة في الأرض، متحملاً تبعات هذه الخلافة والأمانة التي أبت السموات والأرض والجبال أن تحملها وحملها الإنسان.

«إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا» (الأحزاب ٧٢).

أما الأنسان فليس مناط إنسانيته فيما نستقريء من آيات البيان المعجز مجرد كونه منتميًا إلى فصيلة الإنس.

- «ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون» (الحجر ٢٦).
- «خلق الإنسان من صلصال كالفخار» (الرحمن ١٤).

كما أنه ليس مجرد بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.

وإنما الإنسانية فيه ارتقاء إلى الدرجة التي تؤهله للخلافه في الأرض واحتمال تبعات

التكاليف وأمانة الإنسان لأنه المختص بالعلم والبيان والعقل والتمييز. مع ما يلامس ذلك كله من تعرض للأبتلاء بالخير والشر. . » [عبدالرحمن، ص ١٩].

دلالة لفظ الإنسان في القرآن

ورد لفظ الإنسان في القرآن الكريم في مواضع متعددة منها ما يلفت إلى آية خلقه ومنها ما يشير إلى اختصاصه بالعلم، ومنها ما يرفع شأنه ومنها ما يخفضه.

«ولقد ذكر الإنسان في القرآن بغاية الحمد وغاية الذم في الآيات المتعددة، وفي الآية الواحدة، فلا يعني ذلك أنه يحمد ويذم في آن واحد، وإنما معناه أنه أهل للكمال والنقص بما فطر عليه من استعداد لكل منهما، فهو أهل للخير والشر، لأنه أهل للتكليف» [العقاد، ص ١٤].

ويبدأ استشهاد الباحث بسورة العلق أول ما نزل من القرآن، وفيها يمكن أن تكشف الملامح العامة للإنسان.

«أقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، أقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، كلا إن الإنسان ليطغى، أن راه استغنى» (العلق ١ - ٧).

يتضح من خلال الآيات أنه تكرر لفظ الإنسان ثلاث مرات:

الأولى: تلفت إلى آية خلق الإنسان من علق.

الثانية: تشير إلى اختصاصه بالعلم.

الثالثة: تحذر مما يتورط فيه من طغيان، حين يتمادى به الغرور، فيرى أنه أستغنى عن خالقه. [عبدالرحمن، ص ٢٠].

وفي السورة التي سميت بالإنسان تتضح الضدية في تكوين الإنسان واستعداده الخلقي:

«إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا، إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا» (الإنسان ٢، ٣).

ومن شأن الإنسان أن ينسى:

«ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما» (طه ١١٥).

«لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا» (الكهف ٧٣).

والنسيان من الشيطان:

«فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره» (الكهف ٦٣).

وقد يتعدى نسيان الإنسان الأشياء المادية في الحياة، فينسى فضل المنعم عليه إذا أفاء عليه بالنعم، فينسب الفضل لنفسه، قال قوم قارون لقارون:

«وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدينا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين قال إنما أوتيته على علم عندي» (القصص ٧٧، ٧٨).

كما ورد لفظ الإنسان في القرآن مصحوبا بما يذكره بهوانه وضعفه، فيلفته إلى خلقه من تراب، أو من طين، أو من نطفه، أو من علقة.

- «وخلق الإنسان ضعيفا» (النساء ٢٨).
- «فينظر الإنسان مم خُلق، خُلق من ماء دافق» (الطارق ٥، ٦).
- «ألم يك نطفة من مني يمنى، ثم كان علقه فخلق فسوى» (القيامة ٣٧، ٣٨).

خلق الإنسان

إن الإنسان مخلوق مكتمل الخلقة، خلقه الله فأحسن خلقه، وصوره فأحسن تصويره: «يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم، الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك» (الإنفطار ٦ - ٨).

«لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم» (التين ٤).

ولو نظر الإنسان إلى نفسه سجد لله شكرًا على النعم التي تكمن في خلقه:

«ألم نجعل له عينين، ولسانا وشفتين» (البلد ٨، ٩).

«وفي أنفسكم أفلا تبصرون» (الذاريات ٢١).

أطوار خلق الإنسان

وخلق الإنسان مار بطورين مختلفين:

الطور الأول ـ خلق آدم عليه السلام

إن خلق آدم عليه السلام يدل على ما فضل الله به الإنسان على سائر المخلوقات حتى أنه أسجد له الملائكة، ويكفي أن يشير البحث إلى أن الله عندما أراد خلق آدم قال للملائكة: «إني جاعل في الأرض خليفة»، والملائكه ـ رغم أنها خلق مطيع جبل على تنفيذ الأوامر دون مناقشة ـ قالت معترضة على خلق آدم: «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك» وكانت هذه هي المرة الأولى التي تناقش فيها الملائكة ربها منكرة خلق هذا الخليفه، فلما ظهر فضل آدم ـ بتعليم الله له الأسماء، وإنباء الملائكة بها ـ عادت الملائكة إلى طبيعتها المذعنة، وسجدت لآدم استجابة لأمر ربها.

وقول الله تعالى عن خلق آدم: «إني جاعل في الأرض خليفة» يكشف عن فضل الإنسان، لأنه خليفه في الأرض، والخلافه ليست شيئًا هينًا، بل هي تكليف وتشريف ومسؤولية، وهنا تظهر صفة العلم المكتسب فقد اختص الله بها آدم.

«وعلم آدم الأسماء كلها» (البقرة ٣١).

«علم الإنسان مالم يعلم» (العلق ٥).

خلق الإنسان، علمه البيان» (الرحمن ٢، ٣).

وخلق الله آدم فكونه من عنصرين: الجسد والروح والنفس تشملها معًا.

فالجسد من تكوين الأرض:

«منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى» (طه ٥٥).

والروح من عند الله:

«فإذا سويته ونفحت فيه من روحي فقعوا له ساجدين» (الحجر ٢٩).

وبسبب هذه الروح الربانية أسجد الله له الملائكة، فالإنسان ليس غلافًا طينيًا لحميًا، ولكنه خلق من روح الله، فهو بذلك كائن من كائنات الملأ الأعلى، لأن انسانيته لم تتكون ولم تتشكل إلا بعد أن نفخ الله فيه من روحه.

أما حقيقة الروح وماهيتها وكنهها وسرها فلا شأن للإنسان بها، وإنما هي من الأشياء التي اختص الله بها علمه:

«ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» (الإسراء ٨٥).

أما النفس فهي قوام الجسد والروح معًا وهي مناط التكليف في الإنسان، والراجح أنها أقرب إلى الطبع أو القوة الإرادية، وقد ذكرت نفس في القرآن بجميع قواها التي يدرسها اليوم علماء النفس المتخصصون في هذه الدراسات في موضوعاتها الحديثة:

فهناك النفس الأمارة بالسوء:

«وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء» (يوسف ٥٣).

وهناك النفس اللوامة:

«لا أقسم بيوم القيامة، ولا أقسم بالنفس اللوامة» (القيامة ١، ٢).

وهناك النفس الملهمة:

«ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها» (الشمس ٧، ٨).

وهناك النفس المطمئنة:

«يأيتها النفس المطمئنة، أرجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وداخلي جنتي» (الفجر ٢٧ ـ ٣٠).

ثم تذكر النفس في مواضع أخرى من القرآن على أنها مناط التكليف المسؤول في الإنسان:

«يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا. . » (آل عمران ٣٨).

«كل نفس بما كسبت رهينة» (المدثر ٣٨).

«علمت نفس ما أحضرت» (التكوير ١٤).

«علمت نفس ما قدمت وأخرت» (الأنفطار ٥).

الطور الثاني ـ خلق سائر البشر

ما الإنسان؟ ما أصله؟ كيف خلق؟ كيف تكون؟.

«إنه هذه الخلية الواحدة التي تبدأ حياتها في الرحم، خلية ساذجة صغيرة، ضئيلة، مهينة، ترى بالمجهر، ولا تكاد تبين، وهي لا تبين!!!

ولكن هذه الخلية ما تلبث أن تكون الجنين، الجنين المكون من ملايين الخلايا المنوعة: عظمية، وغضروفية، وعضلية، وجلدية. . . ومنها كذلك تتكون الجوارح والحواس

ووظـائفهـا المدهشة: السمع، والبصر، والذوق، الشم، اللمس، ثم الخارقة الكبرى، والسر الأعـظم: الإدراك والبيان، والشعـور والإلهـام، كله من تلك الخلية الـواحـدة، الساذجة، الصغيرة، الضئيلة، المهينة، التي لا تكاد تبين والتي لا تبين» [قطب، جـ ٦ سورة الرحمن].

لقد تحدث القرآن عن خلق الإنسان بعد آدم فذكر أنه خلق من نطفة:

«خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين» (النحل ٤).

«أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين» (يس ٧٧).

«وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى، من نطفة إذا تمنى» (النجم ٤٥، ٤٦).

«ألم يك نطفة من مني يمنى» (القيامة ٣٧).

«إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا» (الإنسان ٢).

كما ذكر القرآن ان الإنسان خلق من ماء دافق، وهذا الماء يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة:

«لينـظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب» (الطارق ٥ ـ ٧).

كما تحدث القرآن عن طوري الخلق ـ خلق آدم وخلق الإنسان معًا ـ فقال:

«والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا..» (فاطر ١١).

«هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة..» (غافر ٦٧).

ثم تحدث القرآن عن المراحل التي مر بها خلق الإنسان في رحم المرأة حديثًا مفصلاً ومرتبًا في سور متعددة، متدرجًا في مراحل خلقه داخل الرحم:

«ألم يك نطفـة من مني يمنى، ثم كان علقـة فخلق فسوى، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى» (القيامة ٣٧ ـ ٣٩).

«هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغـوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون» (غافر ٦٧).

«ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام

لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين» (المؤمنون ١٢ ـ ١٤).

«يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا» (الحج ٥).

تلك هي مجمل الآيات التي تحدثت عن أصل خلق الإنسان، وقد يظن ظان أن هناك تعارضًا في أصل خلق الإنسان في طوره الأول، وفي طوره الثاني؛ لأن ذكر خلقه في الآيات ورد أنه من مواد متعدده، في طوره الأول ذكر أنه خلق: من تراب، من طين، من حماء مسنون، من صلصال كالفخار. وفي طوره الثاني ذكر أنه خلق من ماء دافق، من نطفة، من علقة، ومن مضغة مخلقة وغير مخلقة.

والحقيقة أنه لا تعارض في ذلك: فخلق آدم كان من ماء كسائر المخلوقات:

«والله خلق كل دابه من ماء» (النور ٤٥).

«وجعلنا من الماء كل شيء حي» (الأنبياء ٣٠).

والماء الذي خلق منه آدم خلط به تراب الأرض فصار طينًا، ثم ترك مدة فتعفن فصار حمًا مسنونًا، ثم جف ويبس فصار صلصالاً كالفخار.

وخلق ذرية آدم من ماء دافق (هو المني المدفوق من الرجل) وبعد عملية الإلتقاء بين الحيوان المنوي والبويضة التي تخرج من المرأة تكن النطفة، ثم تتحول النطفة إلى علقة ثم إلى مضغة... ويترقى في الخلق حتى يسير خلقًا سويًا، فتبارك الله أحسن الخالقين.

والسنة المطهرة تؤكد هذه الحقيقة فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبته الشهيرة في حجة الوداع: «أيها الناس.. كلكم لآدم وآدم من تراب..» [رواه البخاري، تفسير سورة ١٢، ٢ ورواه أحمد بن حنبل في سننه حـ ٥ ص ٤١١].

ويقول الرسول فيما رواه ابن مسعود رضي الله عنه: إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بكتب أربع كلمات، يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد» [رواه البخاري ومسلم في باب بدء الخلق].

والمراحل التي مر بها خلق الإنسان في الطورين التي وردت في القرآن والسنه لم يتوصل

إليها علماء الطب إلا منذ فترة وجيزة: «فقد أثبتت الأبحاث الحديثة أن أي إنسان مكون من العناصر التي تتكون منها الأرض فهو يتكون من: الكربون، والأكسجين، والأيدروجين، والفوسفور، والكبريت، والأزوت، والكاليسوم، والبوتاسيوم، والصوديوم، والكلور، والماغنسيوم، والحديد، والمنجنيز، والنحاس، واليود، والفورين، والكوبالت، والزنك، والسلكون، والألمنيوم، وهذه نفسها هي العناصر المكونة للتراب، وإن اختلفت نسبها في إنسان عن الآخر، وفي الإنسان عن التراب إلا أن أصنافها واحدة» [مجاهد، ص ٢٠].

المساواة بين الناس في الإسلام

ولما كان الناس من آدم، وآدم خلق من تراب. ولما كان خلق خلق سائر البشر من طبيعة واحدة، يخرج البحث من كل ذلك بنتيجة واحدة وهي: أن البشر متساويون في أصل الخلقه. فهم ينتمون إلى أب واحد هو آدم، وأم واحدة هي حواء. وقد أثبت القرآن والسنة هذه الحقيقة.

«يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عندالله أتقاكم» (الحجرات ١٣).

«يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء. . .» (النساء ١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى» (رواه البخاري وأحمد).

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن عمر: «يأيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب» [رواه الترمذي ـ سورة ٤٩، ٥٠].

وقد أقر بذلك بعض المنصفين من علماء الغرب في كلامهم عن الإسلام والمسلمين فيقول: توماس أرنولد «وكذلك كانت المساواة بين المؤمنين في الإسلام. وما ساد بينهم جميعًا من أخوة مشتركة لا تسمح بوجود فوارق بين عربي وعجمي، أو بين حر وعبد ممن اعتنقوا الإسلام، فكرة عارضت في الصحيح نعرة الشعور القبلي عند العربي الذي بنى احترامه على شهرة أجداده» [أرنولد، ص ٦١].

وتتضح المساواة أيضًا في خطبة الخليفة الأول أبي بكر الصديق: «أيها الناس إني وليت

عليكم ولست بخيركم فإن رأيتموني على حق فأعينوني وإن رأيتموني على باطل فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم، الضعيف فيكم قوى عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه»، وقدقال مثل ذلك الخليفة الثاني عمر الفاروق عندما تولى الخلافه: «نعم مساواة في الصلاة مساواة في الصوم، مساواة في القضاء فلا عنصرية ولا طبقية بل وحدة عقائدية».

الأثر التربوي للمساواة في الإسلام

إن مساواة الحق سبحانه للبشر في الخلق تتطلب المساواة في الآتي:

١ ـ المساواة في حق التعليم، فمن حق كل مسلم أن يتعلم العلوم الدينية و العلوم الدنيوية، لا فضل لأحد على أحد إلا بالجد والاجتهاد والتفوق، فتفتح المدارس والكليات أبوابها لكل طالب علم، وقد كان الإسلام واضحًا في ذلك كل الوضوح فجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، يقول رسول الله عليه وسلم: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» (رواه ابن ماجه) ويقول أيضًا: «اطلبوا العلم ولو في الصين» (رواه الدرامي). كما قرر الإسلام حق المرأة في التعليم بما يلائم فطرتها، ويعدها لمهمتها في الحياة، على أن يتم هذا بحشمه ووقار، في ضوء شريعة الإسلام، فإن النساء شقائق الرجال.

٢ ـ مساواة المرأة بالرجل في الجانب الإنساني قال تعالى: «يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً» (النساء ١). ومساواتها للرجل في كثير من التكاليف الشريعية، قال تعالى: «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف» (البقرة ٢٢٨)، وقال سبحانه: «من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» (النحل ٩٧)، وقال سبحانه: « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن« (النساء ٣٢).

٣ ـ المساواة في الأمور المتعلقة بشؤون الحياة في الحقوق والواجبات، والمساواة في مزاولة الأعمال، كل إنسان بحسب تخصصه واستعداداته، فحقوقهم الشرعية واحدة، وواجباتهم واحدة، فلا طبقية ولا عنصرية ولا تمايز بسبب اللون أو الجنس فالكل في حق الحياة سواء، يقول الله تعالى: «كل نفس بما كسبت رهينه» (المدثر ٣٨)، وقول رسول الله

صلى الله عليه وسلم: «إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان بر تقي كريم على الله، فاجر شقي هين على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب» (رواه الترمذي وأبو داود)، «ولقد استخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أم مكتوم على المدينة مرتين» (وهو ضرير) [رواه أبو داود عن أنس في كتاب الخراج والإمارة والفيء باب ٣ ص ١٤٦]، كما ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد قيادة جيش المسلمين، رغم وجود أبي بكر وعمر وعثمان وعلي كجند في هذا الجيش.

٤ ـ المساواة في ساحات القضاء الدنيوي، فالمدعي والمدعى عليه متساويان أمام القاضي المسلم، البينة على المدعى واليمين على من أنكر، ومن وصايا عمر بن الخطاب لأحد الولاة: «سوّ بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف في جنبك، ولا ييأس ضعيف من عدلك» [شلبي، ص ١٨٢]، وقال أيضًا لآخر: «اجعل الناس عندك سواء لا تبال على من وجب الحق، ثم لا تأخذك في الله لومة لائم، إياك والأثره والمحاباه فيما ولاك الله» (العقاد: عبقرية عمر)، ومما قاله الخليفتان أبوبكر وعمر عند توليهما الخلافة «القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له» (العقاد، العبقريتان).

٥ ـ المساواة في الجزاء، فكل إنسان يجازي على حسب ما قدم من عمل، فالجنة لمن أطاع الله ولو كان عبدًا حبشيًا، والنار لمن عصاه ولو كان شريفًا قرشيًا، والآيات القرآنية توضح ذلك في أكثر من موضع، يقول الله تعالى: «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» (الزلزلة ٧، ٨)، ويقول سبحانه: «ولا تزر وازرة وزر أخرى» (فاطر ١٨)، ويقول سبحانه: «كل أمرىءٍ بما كسب رهين» (الطور ٢١).

٦ ـ المساواة في العلاقات الإنسانية، أو ما يسمى بالتكافل الاجتماعي، فللفقير حق على الغني يسمى زكاة، والمسلمون تتكافأ دماؤهم، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «المسلمون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهو يد على من سواهم يرد مشدهم على مضعفهم، ومتسريهم على قاعدهم» [رواه أبو داود كتاب الجهاد باب ١٤٧ جـ ٢ ص ٨٩]، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى» (رواه البخارى ومسلم).

مظاهر تفضيل الله للإنسان

لقد فضل الله الإنسان وميزه على سائر المخلوقات، ومن مظاهر هذا التفضيل:

١ ـ أن الله أسجد له الملائكة. وهذا قمة التفضيل.

«وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين» (البقرة ٣٤).

٢ ـ أن الله سخر للإنسان أكثر الكائنات في السموات والأرض لخدمته.

«الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار، وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها» (إبراهيم ٣٢ ـ ٣٤).

«خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين، والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤف رحيم، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لاتعلمون. . . .» (النحل ٤ ـ ٨).

وتسخير المخلوقات للإنسان من مظاهر قدرة الله ـ عز وجل ـ فهو بقدرته سخر الجمل يقوده الإنسان ويركبه ـ رغم ضخامته ـ فهل يستطيع الإنسان أن يسخر لنفسه نملة أو بعوضة أو ذبابة؟!! حاشا وكلا:

«يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب» (الحج ٧٣).

وهكذا يتضح من خلال ما سبق أن الله كرم الإنسان وفضله: «فاسجد له الملائكة وسخر له المخلوقات». وصدق الله العظيم: «ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا» (الإسراء ٧٠).

وهذا يدعو كل إنسان أن يتوجه بالشكر والحمد لله. فعلى كل باحث وعالم أن ينسب الفضل لله، فالإنسان لا يخترع ولا يبتكر ولا يخلق، وإنما يؤلف بين ما هو مخلوق، فالمواد الأولية لم يخلقها الإنسان، وأصل كل شيء مخترع خلق من خلق الله، فالإنسان لا يملك

الخلق بل عاجز عن خلق ذبابة، فسبحان الله العظيم، والحمدلله على كل النعم. والشكر لله على نعمة الإنسانية.

الإسلام يحدد الهدف من خلق الإنسان

إن الله سبحانه لم يخلق الإنسان عبثًا وإنما خلقه لهدف نبيل، وغاية حميدة ويتضح هذا الهدف وتلك الغاية في قوله تعالى: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين» (الذاريات ٥٦ ـ ٥٨).

هذه الآيات تتضمن حقيقة هائلة ضخمة بل من أضخم الحقائق الكونية التي لا تستقيم حياة البشر في الأرض بدون إدراكها وإنها لتفتح جوانب وزوايا متعددة من المعاني والمرامي تندرج كلها تحت هذه الحقيقة الضخمة، التي تعد حجر الأساس الذي تقوم عليه الحياة.

وأول جانب من جوانب الحقيقة أن هناك غاية محددة لوجود الجن والأنس، وهدفًا خلق الله الإنسان من أجله، وهذا الهدف إذا قام به الإنسان وأداه فقد حقق غاية وجوده، وإذا قصر فيه فقد أبطل غاية وجودة. وهذا الهدف وتلك الغاية هي العبادة لله.

مفهوم العبادة في الإسلام

ليست العبادة انزواء عن الحياة، والعكوف في المساجد فقط، وإنما شرعت العبادة في الإسلام لتكون محققة للعقيدة، وثمرة سلوكية عملية لها.

إن العبادة بمعناها الشامل تشمل علاقة الإنسان بربه وعلاقة الإنسان بالإنسان وعلاقة الإنسان بنفسه:

«ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون» (البقرة ١٧٧).

ولما كانت العقيدة الإسلامية تشمل الكون والحياة والإنسان فإن العبادة تشمل كل جوانب الحياة.

ومن ثم يبرز جانب مهم للعبادة ويتبين أن مدلول العبادة أوسع من تأدية العبادات الراتبة. فالناس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر، ولكن الله كلفهم ألوانًا أخرى من مناشط الحياة تستغرق معظم حياتهم:

«فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله . . .»(الجمعة ١٠).

«هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه»(الملك ١٥).

وحينما تقول الآيات: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . .». فإنها تعلن بالعبادة المعرفة الحقيقية لسر وجود الإنسان في هذه الحياة، فلا عبادة بلا معرفة والمعنى أنه خلق الناس ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، وإذا عبدوه تفاضلت عباداتهم، وتفاضل إيمانهم وإنكارهم، وتفاضلت منازلهم، وبالتالي تفاضلت استحقاقاتهم بحسب ما يتعرضون له من امتحانات وابتلاءات في الدنيا:

«أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون»(العنكبوت ٢).

«ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون»(الأنبيا ٣٥).

وبالتالي تفاضل العطاء من المعطي، وعطاء الله مبذول لكل الناس مؤمنهم وكافرهم لأنه رب الناس جميعًا، فالشمس تشرق على الناس جميعًا، والأرض تخرج النبات لكل الناس، والمطر ينزل لكل الناس فالعطاء من الله لكل الناس. ولكن التفاضل في مقدار العطاء:

«من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا، كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا» (الإسراء ١٨ ـ ٢٠).

فالله خلق الناس ليعطيهم، وكل الناس مستحقوق للعطاء بحكم رتبة العبودية لله: فمن أطاع واتقى أغدق عليه العطاء من السماء والأرض [مصطفى محمود، ص ص ٤٤ ـ ٤٥].

«ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض» (الأعراف ٩٦).

ومن عصى وبغى وطغى واستكبر كان جزاؤه العقاب في الدنيا والآخرة: كما حدث مع قوم عاد وثمود وفرعون وهامان وقارون حينما استكبروا وعصوا الله.

«فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» (العكبوت ٤٠).

وكل هذه المعاني متضمنة في قوله تعالى: «ليعبدون». ولذلك عرفت العبادة بأنها كل عمل يرضي الله، وبذلك تشمل العبادة جميع أعمال الإنسان إذا قصد بها إرضاء الله، وتحقيق العبودية له، والخضوع لأمره وشريعته والقرب منه واتقاء غضبه.

فالعبادة عمل الإنسان وما يقتضيه هذا العمل من نشاط حيوي في عمارة الأرض والتعرف إلى قواها، ومكوناتها، وتحقق اراده الله في استخدامها وتنميتها، وترقية الحياة فيها.

ومن ثم يتضح أن معنى العبادة أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر من صلاة، صيام، وزكاة، وحج. وأن حقيقة العبادة تتمثل في أمرين رئيسين هما:

الأمر الأول: استقرار معنى العبودية لله في النفس، فلا رب سواه، ولا يستحق العبودية غيره، فهو الذي ربي العباد على موائد نعمه.

الأمر الثاني: أن يقصد بكل عمل في هذه الحياة التوجه به إلى الله دون غيره، فأي عمل يقصد به غير الله مردود على صاحبه ولا فائدة منه.

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة، ويصبح العمل كالشعائر، والشعائر كعمارة الأرض وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله، والجهاد كالسعي على المعاش، والسعي على المعاش كطلب العلم، وطلب العلم كالصبر، والصبر كالرضى بقضاء الله. . . كلها عبادة، وكلها تحقق الهدف من خلق الإنسان.

بل يمكن القول إن الإسلام تنظيم للحياة عن طريق العبادة لله عز وجل، لأن الإسلام هو استسلام لله عز وجل، وخضوع له في كل شؤون الإنسان.

«قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصًا له الدين، وأمرت لأن أكون أول المسلمين» (الزمر ١١، ١٢).

«قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين» (الأنعام ١٦٢، ١٦٣).

أهمية العبادات ومنزلتها

الإسلام دين شامل يشمل: العقائد، والعبادات، والمعاملات، وكلها تدخل في التكاليف التي كلف الله بها الإنسان عندما عرض عليه الأمانة. وقد قرن الله التكاليف بمطالبة الإنسان بالنتائج السلوكية التي يستلزم أداء هذه التكاليف. ذلك أن الله أراد من دعوة الإنسان إلى الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، أن يقترن هذا الإيمان بحركة فكرية وعاطفية في أعماق الإنسان تتحول إلى قوة دافعه، تحقق مدلولها في عالم الواقع، قوة تدفع الإنسان إلى تحقيق عبوديته لله في سلوكه وأعماله ومجتمعه.

وتمثل الشهادة العمود الأساسي الذي لا يقوم القصر بدونه.

أما العبادات الراتبة وهي: الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج فتمثل أركان هذا القصر وأعمدته الجانبية.

أما بقية العبادات التي تتمثل في سلوك الإنسان وحياته وأعماله كلها من معاملات البيع والشراء وعمارة الأرض والعمل بشريعة الله فيها، فتلك العبادات تمثل تتميم كيان القصر من: الجدران والنوافذ والأبواب والفرش والزخارف فيكتمل بناء القصر ويصبح في أبهى صورة وأجملها.

الحياة التعبدية مهمة لأنها

١ ـ تنظيم سلوكي للإنسان، ينظم الإنسان من خلالها علاقته بالله والناس.

٢ ـ تنظيم عاطفي مبني على محبة العبد لربه وارتباطه بخالقه، ينفذ أوامره؛ لأنه يعرف أن فيها مصلحته، وينتهي عن نواهيه؛ لأنه يعرف أن فيها ضرره، فما الدقائق والساعات والأيام التي يقضيها الإنسان في العبادات الراتبة إلا تذكرة بهذه الصلة المستمرة بالله وترويض للنفس على الخضوع الدائم لله، والخضوع لذكره.

٣ ـ تنظيم اجتماعي مبني على تحقيق التوازن الاجتماعي في المواعيد، والمطعم والملبس والإنفاق. فالله نظم حياة الإنسان فجعل الليل لراحته، والنهار لشغله ومعاشه، قال الله تعالى: «وجعلنا الليل لباسا، وجعلنا النهار معاشا» (النبأ ١٠، ١١)، ويقول سبحانه: «ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله» (الروم ٢٣). ويأكل من الطيبات استجابه لقوله تعالى: «يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله

الذي أنتم به مؤمنون» (المائدة ٨٨) ويمسك الإنسان عن الطعام عندما يأمره الله بذلك: «وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل. . .» (البقرة ١٨٧).

وينفق المال متى أمره بالإنفاق: «يأيها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم. .» (البقرة ٢٥٤). «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها. .» (التوبة ١٠٣). «وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات. . كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده» (الأنعام ١٤١).

والحج تنظيم اجتماعي للحياة على أساس جمع الناس في موقف واحد، يدعون ربًا واحدًا بتلبية واحدة، في لباس واحد، تحت لواء الله، استجابة لنداء الله على لسان إبراهيم عليه السلام: «وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق» (الحج ٢٧).

٤ ـ تنظيم للعلاقات الاقتصادية بين الناس وفق ما شرعه الله، وتنظيم كل ما يتعلق بالنواحي الماليه والاقتصادية من بيع وشراء ورهن ومزارعة ومضاربة. . وغير ذلك من الأمور الإقتصادية التي تلزم الإنسان في علاقته بالناس جميعاً.

٥ ـ تنظيم حياتي نفسي: فالصلاة تنظيم للحياة اليومية على أساس أنها صلة دائمة بين العبد وربه، ولقاء منتظم في أوقات محدده مع الله. فيرتبط قلب الإنسان بالله عز وجل ارتباطًا يجعله ربانيًا.

وتنظيم نفسي للتغلب على شهوتي البطن والفرج. وتقوية الإرادة الإنسانية في مواجهة المغريات، حتى تبقى خاضعة لشريعة الله ومرضاته بعيدة عن غضب الله.

أثر العبادات في تربية الإنسان

للعبادات المختلفة أثر واضح في تربية الفرد والمجتمع، ونتائج ثابتة دائمة في عقل الناشيء، وفي تكوين شخصيته وأسلوب تفكيره، وفي نمط حياته السلوكية وفي مشاعره وعواطفه، وفي إرادته وعزيمته.

ونظراً لأن العبادات المختلفة دائمة ومستمرة، وشاملة لكل جوانب الحياة الإنسانية فمنها: العبادة الجسدية الفكرية، ومنها العبادة المالية، ومنها ما يتعلق بصلة العبد بربه، وما

يتعلق بصلة الإنسان بغيره من الناس، وصلته مع نفسه.

فنظراً لكل هذا كان للعبادات أثرها الروحي، وأثرها الأخلاقي وأثرها الاجتماعي وأثرها على الشخصية الإنسانية.

وسيحاول الباحث فيما يلي توضيح الأثر التربوي لكل جانب من هذه الجوانب:

أ) العبادات تربية فكرية

العبادات بمعناها الشامل تربي الإنسان فكريًا ويتضح ذلك فيما يلي:

التفكير السليم في كل ما يعمل، لأن العبادات إن لم تؤد على وجهها الصحيح، وإن لم تكن خالصة لله فستصبح وبالاً على صاحبها. فالإنسان لا يقدم على العبادة قبل أن يفكر إلى من يتوجه بتلك العبادة يفكر في حكمتها والهدف من أدائها.

الإخلاص في العمل؛ فالإنسان عندما يدرك أن عمله خالص لله، يؤديه على أكمل وجه، فالصلاة مثلا؛ أمر الله بإقامتها «أقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» (العنكبوت ٤٥)، وإقامة الصلاة لا يعني مجرد الإتيان بها بصورة شكلية مجردة من الخشوع، وإنما يعني اندماج الإنسان في الصلاة بصورة تبعده عن كل شيء فهو أمام الله يناجيه، ويتلو كلامه «قد أفلح المؤمنون، الذين هم في صلاتهم خاشعون» (المؤمنون ١، ٢)، وأثر الصلاة ونتائجها ما أخبرنا الله تعالى به بقوله: «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» وقوله: «إن الإنسان خلق هلوعا، إذا مسه الشر جزوعا، وإذا مسه الخير منوعا، إلا المصلين، الذين هم على صلاتهم دائمون» (المعارج ١٩-٢٣).

وهكذا تكون العبادة منهجًا وأسلوب معرفة لله، تجعل الإنسان يفكر في حياته وسلوكه، ومصيره، ليربط كل أعماله بهذا المصير.

ب) العبادات تربية روحية

العبادات بمعناها الشامل تربي الإنسان روحيًا ويتضح ذلك فيما يلي:

تربي عند الإنسان العاطفة الربانية الخالصة، والشعور الدائم بالإنقياد لله والخضوع لأوامره، واجتناب نواهيه.

ترويض للنفس الأمارة بالسوء على طاعة الله، وإبعاد الشيطان، وذلك بتنفيذ أوامر الله ومخالفة الشيطان في كل ما يتعلق بمغريات الحياة.

إخلاص النية لله: فالعبادات تقوم في صحة أدائها على النية «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل إمرىء ما نوى» (رواه البخاري ومسلم كتاب بدء الوحي). وإخلاص النية لله شرط من شروط صحة العبادة.

نبذ النفاق والرياء: فالعبادة يجب أن يكون هدفها مرضاة الله دون غيره، فلا يكون هدفها إرضاء الناس أو مراءاتهم وطلب مديحهم أو الرغبة في جاه أو سلطان:

«قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين» (الأنعام ١٦٢).

«فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا» (الكهف ١١٠).

«أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه برىء وهو للذي أشرك» (رواه ابن ماجه، الترغيب والترهيب ١٣٨٨ ص ٣٢).

وعن الضحاك بن قيس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن تبارك وتعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له، لا تقولوا هذه لله وللرحم، فإنها للرحم وليس لله منها شىء» (رواه البهقي الترغيب والترهيب ١٣٨٨ ص ٢٣).

جـ) العبادات تربية أخلاقية

العبـادات بمعناها الشامل ينتج عن تربيتها الروحية إحساس أخلاقي دائم والتزام تصدر عنه الصفات الآتية:

الأمانة: بمعنى أن يكون الإنسان أمينًا مع نفسه، أمينًا مع الناس، أمينًا مع الله، تحمل الإمانة العامة، فيؤد الأمانة لمن أئتمنه ولا يخن من خانه.

الوفاء بالعهد: فإن الله أخذ العهد على الإنسان ألا يشرك به شيئًا وأن يبر والديه ويحسن إلى جاره. فالعهد مسؤلية على الإنسان أن يؤديها «وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا» (الإسراء ٣٤).

الصدق: وهو من الصفات التي يتميز بها المؤمن، لأن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله

صديقًا والإنسان الصادق إنسان يعتمد عليه في كل تصرفاته.

التضحية، والاستقامه، والمروءة وسائر الصفات الخلقية الثابته والمطلقة المستمرة التي بعث الرسول ليحققها ويغرسها في نفوس أمته فهو يقول: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (رواه البخاري ومسلم في باب الأخلاق).

التقوى وهي الصفة التي تعتبر غاية لكل عبادة، ودعوة توجه بها الله لكل مخلوقاته حتى الأنبياء.

«يأيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين..» (الأحزاب ١).

«يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم» (الحج ١).

«يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون» (البقرة ١٨٣).

وهذه الصفات الخلقية تصدر من الإنسان المؤمن المتعبد تلقائيًا كما تصدر من الورود عبيرها، بعيدة عن أي مصلحة أو اعتبارات شخصية، أو رياء ومداهنة للناس وما الحاجة إلى الناس إذا كانت الغاية والهدف إرضاء الله واتقاء غضبه وعذابه؟ «إن إلينا إيابهم ثم علينا حسابهم» (الغاشية ٢٥، ٢٦).

د) العبادات تربية اجتماعية

العبادات بمعناها الشامل تحقق تربية اجتماعية لا مثيل لها تتضح في الآتي:

أنها تطبع الإنسان على الإرتباط الدائم بالجماعة المسلمة، حيثما كان ومهما كانت ظروفه: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعا طفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى» (رواه البخاري في كتاب الأدب باب ٢٧، ومسلم في كتاب البر باب ٦٦).

«إنما المؤمنون إخوة» (الحجرات ١٠).

«وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان» (المائدة ٢).

أنها تطبع الإنسان على النظام ووحدة الهدف فالعبارات الراتبة (كالصلاة والصوم والحج) تؤدي في جماعة منظمة متحابة ذات هدف واحد، فأفرادها يقومون بأداء أقوال وأفعال واحدة في الصلوات والصوم والحج، مساواة تامة في الأداء وتحمل

المشقات، الكل يعبد ربًا واحدًا، ويتجه إلى قبلة واحدة، ويبتغي مرضاة إله واحد، الهدف واحد، وتلك هي قمة التربية الاجتماعية لأي مجتمع.

أنها تحقق نظامًا اجتماعيًا في المعاملات لا يوجد له مثال في أي مجتمع آخر، فنظام المعاملات الإسلامي من بيع وشراء، ونظام للمواريث والزواج والطلاق وتحريم الربا والاستغلال. . وغير ذلك من شؤون الحياة كلها تسير وفق تشريع سماوي من قبل الله الذي خلق الإنسان ويعرف ما يصلحه.

وبهذا التشريع انتصر المسلمون وتفوقوا على غيرهم من المجتمعات، تقول الكاتبة الإيطالية (فاليرى) موضحة أسباب تقدم المسلمين وسر انتصار الدعوة الإسلامية وانتشارها وبقائها: «أخذ الناس الذين دهشوا لهذا الانقلاب الاجتماعي الديني السياسي يتساءلون عن سببه الأول، ولكن الكثيرين منهم كانوا لايبصرون، أو تعمدوا إغماض عيونهم، فظلوا يتخبطون طويلاً في مجاهل الغلط والشطط ولم يدركوا أن القوة الإلهية هي التي أعطت الإشارة الأولى لهذه الحركة المباركة الواسعة النطاق. . ولم يشأوا أن يصدقوا أن الحكمة الإلهية هي التي اقتضت أن يكون محمد خاتم النبيين والمرسلين وسجلت له إلى الآن رسالة عامة إلى الناس أجمعين بغير تمييز بين جنس وجنس، أو بين بلد وبلد» [النحلاوي(أ) ص ص ١٥، ١٦].

هـ) العبادات تربية شخصية للإنسان

العبادات بمعناها الشامل تربي شخصية الإنسان فتحقق له الآتي:

تقوى إرادته في إخضاع النفس، والتغلب على الشهوات.

تحقق للإنسان حريته: فهو بعبوديته لله، لا يخشى أحدا إلا الله، فالرزق بيد الله وخشيته لله تنبع من إيمانه بأن كل شيء بإرادة الله، وهذا يكسبه قوة وإرادة لا حد لهما يتضح ذلك من قول رسول الله لعبدالله بن عباس «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسال الله وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الناس لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وطويت الصحف» (رواه الترمذي في سننه باب القيامة).

العبـادات تحفظ للإنسان كرامته: فلا يذل لأحد، ولا يخضع لغير الله، ذلك أن الإنسان المتعبد بوعي وبصيرة يتعلم من تكرار هذا التعبد ألا يعمل إلا ما يؤمر به، ويزنه بميزان معـين، ثم يرجحـه بإرادتـه، يحققه بصبر وعزيمة وتصميم عارفًا هدفه مستبعدًا المؤثرات الأخرى التي قد تؤدي به إلى الانحراف عن هذا الهدف.

ويشعر المتعبد بكرامته حين يكرر ألفاظًا وحركات وانفعالات تشعره بالإرتباط بالله، وهـو أكبر من كل كبير، وأعظم من كل عظيم، فيعتز به، وتصغر في عينه كل المصائب والمصاعب ويستعين بالله في كل موقف «إياك نستعين» (الفاتحه ٥).

الهدف من العبادة

ليس الهدف من العبادة تحصيل الرزق من الله، ولكن الهدف هو تحقيق معنى العبادة لله تعـالى: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين» (الذاريات ٥٦ـ٥٨).

فالـرزق بنص الآية بيد الله وهو مضمون، وعطاء الله للجميع: «كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً» (الإسراء ٢٠)، ولو كان الرزق في مقابل العبادة ما رزق الله الكفار والعصاه، فهو رب العالمين يعطي بلا مقابل.

وتحقيق الهدف من العبادة يكون ببذل أقصى الجهد والطاقة، ثم يسلم العبد أمره لله، فيستمتع براحة الضمير وطمأنينة النفس وصلاح البال في جميع الأحوال، سواء رأى ثمرة عمله أم لم يرها، تحققت النتائج كما قدرها، أم بخلاف ما قدرها، فهو قد أنهى عمله، وضمن جزاءه، عنـد تحقق معنى العبـادة واستراح، وما يقع بعد ذلك خارج عن حدود وظيفته، وقد علم أنه عبد فلم يتجاوز حدود العبد، وعلم أن الله رب فلم يقحم نفسه فيما هو من شؤون الرب، وذلك هو التوكل على الله في أسمى صوره.

وظيفة الإنسان في الإسلام: نماذج وأنماط

إن الله الذي بيده ملكوت كل شيء قد رتب الكون كله، واختص كل مخلوق من مخلوقاته بخصائص معنية.

فالجمادات تسير بنظم ثابته، وحساب معلوم، فهي مسيرة في نظمها ولا اختيار لها:

«لا الشمس ينبغي أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون» (يس ٤٠).

والنباتات خاضعة لقوانين ثابته، وتسير في تطورات حياتها وفق هذه القوانين، وهي أيضًا مسيرة في نظمها ولا اختيار لها: «لينظر الإنسان إلى طعامه، أنا صببنا الماء صبا، ثم شققنا الأرض شقا، فأنبتنا فيها حبا، وعنبا وقضبا، وزيتونًا ونخلا، وحدائق غلبا، وفاكهة وأبا، متاعا لكم ولأنعامكم» (عبس ٢٤-٣٢).

والحيوانات تعيش في ظل نظام محكم، وقد أودعت فيها وسائل الحياة، والدفاع عن النفس، وطلب الطعام والشراب، تخضع لنواميس الكون خضوعًا إجباريًا لا اختيار لها فيه: «والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. . . ويخلق ما لا تعلمون» (النحل ٥-٨).

تلك هي الكائنات المدركة في الكون أما الكائنات غير المدركة فقد أمر الله الإنسان أن يؤمن بها مثل: الملائكة والجن. والبحث لا يتناولها، لأنها من الغيبيات التي لا يعرف عنها شيء إلا ما أخبر الله به فقال عن الملائكة: «لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون» (التحريم ٦). وقال عن الجن: «إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم» (الأعراف ٢٧). إبليس من فصيلة الجن: «وقلنا للملائكة اسجدوا إلا بليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه» (الكهف ٥٠).

أما الإنسان فإنه يشترك مع الكائنات المدركة في خضوعه لنواميس الكون خضوعًا أجباريا، فلا اختيار له في نموه، ولا عمل أجهزة جسمه، ولكن الإنسان يمتاز بأن الله تبارك وتعالى قد منحه عقلًا وفكرًا واختيارًا.

«ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها« الشمس ٧-١٠).

وحمله إلى جانب هذا الاختيار الأمانات.

«أنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا» (الأحزاب ٧٢).

ومن خلال الآيات القرآنية، وما تضمنته من أوصاف وصف الله بها الإنسان يمكن أن تشتق بعض وظائف الإنسان في الحياة كما حددها الإسلام.

أ) الوظيفة الأولى للإنسان

عندما قال الله عز وجل للملائكة: «إني جاعل في الأرض خليفة» حدد الله الوظيفة الأولى للإنسان.

فقد أذنت مشيئة الله ـ أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود زمام هذه الأرض وتطلق يده فيها، وتسند إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، والتحليل والتركيب والتحوير والتبديل، وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات وتسخير هذا كله ـ في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه.

وكانت الوظيفة الأولى للإنسان إنه خليفة في الأرض. يقول القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرطبي» (خليفة)... والمعنى بالخليفة هنا في قول ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل ـ آدم عليه السلام، وهو خليفة الله في إمضاء أحكامه وأوامره» (تفسير القرطبي جـ ١ ص ٢٦٣)، وقول الأمام البغوي في تفسيره المسمى «معالم التنزيل»: (خليفة).. والمراد بالخليفة ههنا آدم، سماه خليفة لأنه خلف الجن، أي: جاء بعدهم، وقيل لأنه يخلفه غيره، والصحيح أنه خليفة الله في أرضه لإقامة أحكامه وتنفيذ قضاياه [تفسير البغوي جـ ١ ط٢ ص ٦٠].

فما الخلافة؟ وكيف يحققها الإنسان

الخلافة لغة النيابة والوكالة، والنيابة أو الوكالة بمفهوم البشر عبارة عن: الموكل، والوكيل، والموكل فيه أو عليه، وشروط الوكالة، ومدة الوكالة، والحساب في نهاية الوكالة (فاروق الدسوقي ١٤٠٦هـ ص ٣٧).

ونجد بالقياس أن عناصر الخلافه هنا: مستخلف وهو الله ـ ومستخلف وهو الإنسان ومستخلف فيه أو عليه وهو الأرض وما فيها وما عليها ـ وشروط الوكالة وهي التكاليف التي كلف الله بها الإنسان مجملة في الأوامر والنواهي ـ ومدة الوكالة هي الحياة الدنيا من بدايتها إلى نهايتها ـ والحساب يوم القيامة.

«يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيدا» (آل عمران ٣٠).

وبوظيفة الخلافة وهب الله هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة والأستعدادات

الكامنة في خلقه ما جعله قادرًا على أعباء الخلافة، ووهبه من القوى الخفيه ما يحقق المشيئة الإلهيه.

لقد خفيت على الملائكة حكمة المشيئة العليا في بناء هذه الأرض وعمارتها وفي تنمية الحياة وتنويعها، وفي تحقيق إرادة الخالق وناموس الوجود في تطويرها وترقيتها وتعديلها، على يد خليفة الله في أرضه، هذا الذي قد يفسد أحيانًا، وقد يسفك الدماء أحيانًا، ليتم من وراء هذا الشر الجزئي الظاهر خير أكبر وأشمل: خير النمو الدائم، والرقي الدائم، خير الحركة الهادفة البانية، خير المحاولة التي لا تكف والتطلع الذي لا يقف، والتغيير والتطوير في هذا الملك الكبير، عندئذ جاءهم القرار من العليم بكل شيء، والخبير بمصائر الأمور «قال إني أعلم ما لا تعلمون» [قطب، الجزء الأول].

والخلافة تعبر عن علاقة بين الإنسان وربه وهي تعني

أولاً: العبودية والخضوع والطاعة لأوامر الله.

ثانياً: سيطرة الإنسان على الأرض، وهيمنته عليها.

والعبودية والسيادة مرتبطان ببعضهما، فإذا ضيع الإنسان عبوديته لله ضيع سيادته على الأرض، ومعنى ذلك أن الإنسان إذا رفض عبوديته لله سقط في عبودية غيره من هوى أو شيطان، أو مال أو حاكم . . . ومن ثم فلا سبيل أمام الإنسان لتحرير ذاته من كل هذه المعبودات سوى توجيه عبوديته لله وحده.

الأثر التربوي للوظيفة الأولى

بممارسة الإنسان لوظيفة الخلافة عرف منذ أن خلفه الله ماله من حقوق وما عليه من واجبات، فقد بين الله له طريق الخير وحثه على السير فيه، وطرق الشر وحذره من سلوكها. . . «وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله. . .» (الأنعام ١٥٣).

الأثر التربوي لذلك هو

١ ـ أن المسؤلية تكون على قدر من يتحملها. فالتكاليف التي حملها الله لخليفته

مناسبة لقدراته ويمكنه أداءها.

٢ ـ أن على الإنسان أن يحقق الغاية من خلافته في الأرض فيعمرها، ويرقي بها في مجالاتها.

٣ ـ أن في تفضيل الله للإنسان بإستخلافه في الأرض مسؤلية تقتضيه أن يكون أهلاً لهذا التكليف، ويستعد ليوم الحساب.

٤ ـ بالخلافة غرس الله في نفس الإنسان منذ أن خلقه المسؤلية الكاملة في كل عمل يؤديه.

ب) الوظيفة الثانية للإنسان

بعد أن خلق الله آدم، قام ـ سبحانه ـ بتعليمه الأسماء كلها، ثم طلب منه أن ينبىء الملائكة ويعلمهم بهذه الأسماء، وبهذا تحددت الوظيفة الثانية للإنسان وهي أنه معلم ومعلم «وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا أنك أنت العليم الحكيم، فقال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض. . . .» (البقرة ٣١-٣٣).

«اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم» (العلق ٣-٥).

«الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان» (الرحمن ١-٤).

من هذه الآيات يتضح أن الله وهب الإنسان سر العلم والمعرفة والتعليم والتعلم، ووظيفة المعلم بدأت مع الوظيفة الأولى، حين علم الله آدم الأسماء كلها، فحقق للإنسان التكريم في أسمى صورة حين وهبه من الأسرار ما يرفعه على الملائكة لقد وهبه سر المعرفة «إنا خلقنا الإنسان من نطفه أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا» (الإنسان ٢). سميعاً بصيراً بعقله وفكره، وإلا فالخيل تسمع أكثر من الإنسان والهدهد يبصر بقوة أكثر مما يبصر الإنسان، ولكن الإنسان: إن جاع فكر، وإن احتاج لشيء فكر، فزرع الأرض واستخرج من ثمراتها، واستخدم الدواب ثم السيارات والطائرات عند السير لمسافات طويلة أو عجز عن حمل الأشياء الثقيلة، واستخدام أدوات القتال للدفاع عن نفسه وستر عورته لما شعر بكشفها، «فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة» (الأعراف ٢١).

وفي كل ذلك كان سمعه وبصره عبارة عن تفكير فيما حوله والإفادة منه:

«ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها. . » (فاطر ٢٧).

فالرؤية المذكوره في أول الآية رؤية تفكير وتدبر وتأمل سنن الله والبحث في نظمه في الكون، وقوانينه في الوجود «وكلما تعمق الإنسان في دراسة الكون تأكد لديه وجود الله، وبدت له عظمته، وبالتالي رسخ إيمانه وزادت خشيته» (التميمي، وسمرين، ص ٢٤).

وبهـذه الوظيفة أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين، يدعون الناس إلى عبادة الله ويعلمهم الشرائع والتكاليف، ولذلك كان العلماء ورثة الأنبياء، لأنهم أخذوا وظيفتهم في تعليم الناس.

الأثر التربوي للوظيفة الثانية

إن وظيفـة المعلم، من أسمى الوظائف، لأنها الطريق الصحيح للمعرفة وخاصة معرفة الله عز وجل «إنما يخشى الله من عباده العلماءُ» (فاطر ٢٨).

ومن الآثار التربوية التي تشتق من هذه الوظيفة ما يلي:

١ ـ تسمية الأشياء بأسمائها: وهي قدرة ذات قيمة تربوية كبرى في الحياة الإنسان المعلم عامة، وفي الحياة التعليمية خاصة، ندرك قيمتها حين نتصور الصعوبة الكبرى لو لم يوهب الإنسان القدرة على الرمز بالأسماء للمسيات.

٢ ـ استخدام الوسائل التعليمية الموضحة: فالمشقة في التعليم والتفاهم والتعامل حين يحتـاج المعلم كي يوضـح شيئًـا للمتعلمين أن يستحضر هذا الشيء بذاته أمامهم ليتفاهموا بشأنه ولا يخفى على أحد الأثر التربوي للتعليم إذ أحضر المعلم المادة المراد تعلمها أمام المتعلمين.

٣ ـ الحـرص على طلب العلم وتحصيله، كي تبقى الأفضلية للإنسـان على سائر المخلوقات، والإسلام جعل طلب العلم فريضة، وضرورة مدى الحياة.

٤ ـ أن العلم والتعليم لجميع الناس الكبار والصغار، الذكور والإناث لأن العلم أعطى لجنس الإنسان دون تميز «علم الإنسان ما لم يعلم»، «خلق الإنسان، علمه البيان».

٥ ـ الاهتمام بالمعلم، والعلم، والتعليم، لأن الله رفع شأن الإنسان بما حباه من علم بل إنه ـ سبحانه ـ ميز بين العلماء وغير العلماء فقال «قل هل يستوي الذين يعلمون والذين

لا يعلمون؟ » «استفهام إنكاري يفيد النفي، أي لا يستوون».

جـ) الوظيفة الثالثة للإنسان

«إنـا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا» (الأحزاب ٧٢).

إن أمانة التكليف من أخص الوظائف التي ميزت الإنسان عن غيره من المخلوقات بصريح اسنادها إلى الإنسان (حملها الإنسان) بلفظ الإنسان المفرد المعرف بآل.

فالأمانة التي عرضت على السموات والأرض والجبال والإنسان، فحملها الإنسان ولم يحملها غيره ممن عرضت عليهم، إنها أمانة التكليف.

«إن هذا النوع من التكليف ليس في السموات ولا في الأرض، لأن الأرض والجبل والسـماء كلهـا على ما خلقت عليه: الجبل لا يطلب منه السير، والأرض لا يطلب منها الصعود، ولا من السماء الهبوط.. كيف حملها الإنسان ولم تحملها هذه الأشياء؟ إن الأشياء نظرت إلى أنفسهن فرأين ضعفهن فامتنعن، والإنسان نظر إلى جانب المكلف، وقال المودع عالم قادر لا يعرض الأمانة إلا على أهلها، وإذا أودع لا يتركها بل يحفظها بعينه وعونه، فقبلها وقال: «إياك نعبد وإياك نستعين» [الفخر الرازي، التفسير الكبير جـ ٢٥].

الأثر التربوي للوظيفة الثالثة

أمانة التكليف لها أثرها التربوي في الحياة كلها ويتضح ذلك فيما يأتي:

١ ـ أن على الإنسـان أن يؤدي ما يكلف به من أعمال، فالتكليف من خصائص الإنسان الذي ميزه الله بها عن غيره من المخلوقات فحمل أمانة التكليف.

٢ ـ ألا يكلف الإنسـان إلا بما يمكنـه تحقيقـه «لا يكلف الله نفسـاً إلا وسعهـا» (البقـرة ٢٨٦)، فلا يكلف الصغير بما يكلف به الكبير، ولا يكلف الرجل بما تكلف به المرأة، أو العكس، وقد راعى الإسلام كل ذلك في تكليفه للإنسان «ليس على الأعمى حرج ولا على الأعـرج حرج ولا على المـريض حرج» (الفتـح ١٧) «فمن شهـد منكم الشهـر فليصمه، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام آخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» (البقرة ١٨٥) فلكل إنسان استعداداته وطاقته التي هى كامنة في أصل خلقته.

٣ ـ أن من لا يمكنه عمل الشيء الذي يكلف به عليه أن يعتذر عن أدائه ويتركه لمن يقدر على أدائه، فالسموات والأرض والجبال أبين حمل ما لا طاقة لهن على حمله، ولم يعتبر الله إباءهن عصيانًا له ـ سبحانه ـ فالرفض هنا كان عدم استطاعة للحمل كما أن الأمر كان عرضًا ولم يكن ملزمًا له فهناك فرق بين رفض ورفض.

٤ ـ إن الإنسان مسؤل أمام ضميره عن التكاليف التي يكلف بها، ومن هنا كانت مشقة التكاليف وصعوبتها، إذ تلوح للإنسان فرض الخيانة، ولكنه يتراجع عن الخيانة لأنه مسؤل أمام الله وأمام ضميره: «فالإنسان وحده هو المسؤل عن عمله، والمحاسب عليه ثوابًا وعقابًا لا يحمل أحدًا عنه تبعة مسعاه، ولا يفوت بغير جزاء» [عبدالرحمن، ص ٧٣].

د) الوظيفة الرابعة للإنسان

عندما خلق الله الإنسان، وضع فيه القدرة على الاختيار:

«إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرًا، إنا هديناه السبيل إما شاكرًا وإما كفورًا» (الإنسان ٢ ـ ٣).

«ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها» (الشمس ٧ ـ ١٠).

«ألم نجعل له عينين، ولسانا وشفتين، وهديناه النجدين» (البلد ٨ ـ ١٠).

الآيات السابقة تصف الإنسان بصفات تعني أنه مختار، ويشتق من هذه الصفات الوظيفة الرابعة للإنسان وهي الاختيار فهو حر مختار فيما يفعل، فقد زوده الله إلى جانب المعرفة والتكليف بالقدرة على اختيار الطريق بعد أن بين له طريق الخير وطريق الشر، ثم تركه ليختار.

«ونفس وما سواها. . . هذه الآيات. . . تمثل قاعدة النظرية النفسيةللإسلام. . . ومن خلال هذه الآيات وأمثالها تبرز لنا نظرة الإسلام إلى الإنسان بكل معالمها ـ إن هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة مزدوج الاستعداد، مزدوج الاتجاه، نعنى بكلمة مزدوج على وجه التحديد بأنه بطبيعة تكوينه (من طين الأرض، ومن نفخة الله فيه من روحه) مزود باستعدادات متساوية للخير والشر، والهدى والضلال، فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر، كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى سواء» [قطب، جـ ٦].

«وهـديناه النجـدين. . ذهب عامة المفسرين في النجدين، وهو أنهما سبيلا الخير والشر، وعن أبي هريرة أنه عليه السلام قال: «إنما هما النجدان: نجد الخير ونجد الشر، ولا يكـون نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير: «فألهمها فجورها وتقواها. . إلهام الفجور والتقوى إفهامها وإعقالها، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح، وتمكينه من اختيار ما شاء منهما» [الرازي، التفسير الكبير ـ ٣١].

إذا كان الإنسان قد مُنح حرية الاختيار فإن هذا يلزمه تبعة حسن الاختيار وتوجيه الاستعداد إلى ما فيه صلاح النفس وهدايتها.

الأثر التربوي للوظيفة الرابعة

١ ـ ترتفع بقيمة الإنسان كي تجعله ـ بفضل الله ـ أهلا لاحتمال تبعة تصرفاته. «فقد منـح الله الإنسان عقلاً وتفكيراً وإرادة، وفتح له أبواب الاختيار والتمييز فبمقتضى هذا العقل وتلك الإرادة لا سلطان عليه: ولا رعديد يقف بالمطرقة بين يديه. . . إن الله قد جعله سيد هذا الوجود» [خضر، ص ٢٥].

٢ ـ تحمل الإنسان نتائج أعماله، لأنه فعلها بكامل حريته واختياره «كل نفس بما كسبت رهينة» (المدثر ٣٨)، : «يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» (الزلزلة ٦ ـ ٨) وبتحمل الإنسان نتائج أعماله يكون أمره بين يديه فتثور في حسه مشاعر اليقظة والتحرج والتقوى.

٣ ـ حرية الرأي والتفكير ما دامت في دائرة العقل وفي إطار من الإحترام يحجزها عن التعدي على حرمات الآخرين أو على قدسية الأديان. إن الآراء السليمة هي التي تكون الجو المناسب للتقدم الحضاري المنشود، وإن الجو الإسلامي لهو خير الأجواء التي تنمو فيها الآراء السامية الهادفه إلى الخير» (خضر، ص ٣١).

٤ ـ أن الحرية تدفع الإنسان كي يرجع إلى المنهج الإسلامي الرباني الثابت، ليظل على يقين أنه لم يضل ولم يخدع، فيظل قريبًا من ربه يهتدى بهديه، ويستضىء بالنور الذي أمده به.

هـ) الوظيفة الخامسة للإنسان

«إقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم» (العلق ٣ ـ ٥).

تكشف هذه الآيات عن وظيفة أخرى للإنسان غير وظيفة العلم التي سبق ذكرها وهذه الوظيفة هي: الإنسان الكاتب، فالكتابة صفة خاصة بالإنسان دون سواه، من سائر المخلوقات، والكتابة من أبدع ما اخترع الإنسان ـ بتوفيق الله له ـ «الذي علم بالقلم»... المراد من القلم الكتابة... أو المراد علم الإنسان الكتابة بالقلم، وكلا القولين متقارب، إذا المراد التنبيه على فضيلة الكتابة والكتابة خاصة بالإنسان» (الرازي، التفسير الكبير جـ ٣١).

والكتابة وظيفة عليا للإنسان ووسيلة الكتابة القلم والقلم صياد يصيد العلوم، يبكي ويضحك، بركوعه تسجد الأنام، وبحركته تبقى العلوم على مر الليالي والأيام، فالقلم قوام الإنسان.

الأثر التربوي للوظيفة الخامسة

لوظيفة الكتابة عند الإنسان آثارها التربوية المتعددة:

١ ـ الكتابة أداة للتعليم والتعلم، فبدونها لا يستطيع المعلم أن يوصل المعلومات للتلاميذ، ولايستطيع التلاميذ تلقي المعلومات وقراءتها وفهمها.

٢ ـ إن الكتابة مهمة لكل فرد؛ كي يكون مواطنًا نافعًا لنفسه ووطنه. (عليان(أ)، ص ١٧٦).

٣ ـ إن الكتابة تضمن للإنسان حقوقه وتحفظها من الضياع، يقول الله تعالى: «يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه» (البقرة ٢٨٢).

٤ ـ إنها أداة لحفظ التراث ونقله، كما أنها أداة اتصال الحاضر بالماضي، والقريب بالبعيد، ونقل المعرفة والثقافة والتراث إلى المستقبل. [عليان (ب)، ص ١٥٧].

٥ ـ إن الإنسان الكاتب له أميته في المجتمع، فكم من أناس رفعتهم الكتابة إلى أعلى المناصب حتى اشتهروا بهذه الوظيفة مثل: عبدالحميد الكاتب، وابن العميد.

التوصيات

من خلال البحث السابق يوصي الباحث بالآتي:

١ ـ أن تتجه البحوث والدراسات المتعلقة بالإنسان (خلقه، الهدف من خلقه،

وظيفتـه في الحياة) إلى المصـادر الإسـلامية من القرآن والسنة، لإثبات أن الإسلام غني بمصـادره الواسعة الشاملة، فإن الاعتماد على هذه المصادر يساعد على مواجهة مشكلات العصر التي يواجهها الإنسان، ويعمل على حلها وفق المنهج الإسلامي.

٢ ـ التصـدي لكـل النظريات والدعوات الباطلة ـ وما أكثرها ـ والرد عليها بأدلة وأسانيد إسلامية صحيحة.

المراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ الإمام، البغوى. *معالم التنزيل*، ط ٢، بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٧هـ.

٣ ـ الإمام، الراي الفخر. *التفسير الكبير*، طهران: دار الكتب العلمية، (د٠ت).

٤ ـ الإمـام، القـرطبى. *الجـامع لأحكام القرآن*، بيروت: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، (د٠ت).

٥ ـ ابن ماجة. *سنن ابن ماجة*، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

٦ ـ الإمام أحمد. مسند *الإمام أحمد بن حنبل*، بيروت: المكتب الإسلامي، (د٠ت).

٧ ـ الإمام البخاري. صحيح *البخاري*، استانبول: تركيا، المكتب الإسلامي، ١٩٧٩م.

٨ ـ الإمام الترمزي. *سنن الترمزي*، القاهرة: دار الفكر، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

٩ ـ الإمام مسلم. صحيح *مسلم*، القاهرة: دار إحياء الكتب العربي، عيسى الحلبي، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.

١٠ـ البيهقي، الحفاظ أبو بكر. *السنن الكبرى*، الهند: حيدر أباد، ١٣٤٤هـ.

١١ـ أبو داود، الحافظ. *سنن أبي داود*، سورية، حمص: دار الحديث، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

١٢ـ المقـدري، الحـافظ زكي الـدين. *الـترغيب والترهيب*، بيروت: دار أحياء التراث العربي، ١٣٨٨هـ/١٩٨٦م.

١٣ـ شلبي، أحمد. *مقارنة الأديان*، ٣الإسلام، ط ٣، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٧م.

١٤ـ عليان، أحمد فؤاد. *الطرق التربوية لتدريس اللغة العربية*، مصر: أسيوط، مطبعة الشرقاوي، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
١٥ـ عليان، أحمد فؤاد. *المهارات اللغوية*، الرياض: دار المسلم، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
١٦ـ عليان، أحمد فؤاد. *معاملة الإنسان في الإسلام*، تحت الطبع.
١٧ـ البنا، حسن. *نظريات في القرآن*، القاهرة: مكتبة الاعتصام، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
١٨ـ قطب، سيد. *في ظلال القرآن*، القاهرة: دار الشرق، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢.
١٩ـ قطب، سيد. *نحو مجتمع إسلامي*، القاهرة: دار الشرق، ١٤٠٢هـ/١٩٧٢م.
٢٠ـ سيرتوماس، أرنولد. *الدعوة إلى الإسلام*، (ترجمة: إبراهيم مدكور، د. عبدالحميد النحداوى) القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧١م.
٢١ـ عبدالرحمن، عائشة (بنت الشاطىء). *القرآن وقضايا الإنسان*، بيروت: منشورات المكتبةالعصرية، (د٠ت).
٢٣ـ العقاد، عباس محمود. *عبقرية الصديق*، الرياض: الرئاسة العامة لتعليم البنات، (د٠ت).
٢٤ـ العقاد، عباس محمود. عبقرية عمر، القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٧٦م.
٢٥ـ النحلاوي، عبدالرحمن. *التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة*، الرياض: مكتبة إسامة، ١٤٠٢هـ/٢٩٨٢م.
٢٦ـ النحلاوي، عبدالرحمن. *أصول التربية الإسلامية وأساليبها*، بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٢٧ـ عثمان، عبدالكريم، *معالم الثقافة الإسلامية*، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٩هـ.
٢٨ـ التميمي، عزالدين؛ سمرين، بدر إسماعيل. *نظرات في التربية الإسلامية*، عمان: دار البشير، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٢٩ـ الدسوقي، فاروق. *مفاهيم قرآنية حلول حقيقة الإنسان*، الرياض: مكتبة فرق الخاني، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٣٠ـ هريدي، مجاهد محمد. *العلاقات الإنسانية في القرآن والسنة*، الرياض: دار الرشيد، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
٣١ ـ مجمع اللغة العربية. *المعجم الوسيط*، طهران: المكتبة العلمية (د.ت).

٣٢ـ خضر، محمد حمد. *الإسلام وحقوق الإنسان*، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٨٠م.

٣٣ـ محمود، مصطفى. *القرآن كائن حي*، القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٧٨م.

Man in Islam
His Origin, Aims and Function

Ahmed Fouad M. Alliyan
Assistant Professor Teacher's College in Riyadh

Abstract: This study included introduction and four other chapters.

Chapter One Presented the Problem of the study, its objectives, significance, limits and procedures.

Chapter Two Presented and explained the terms; human being, people and man as described in the Holy Qura'AN. It has also discussed the stages of man's creation and the principle of equality among all human beings and its educational implications.

Chapter Three Discussed the aims of man's creation which are basically the worshipping of Allah. It has also discussed the significance and comprehensiveness of worship in Islam and the intellectual, spiritual, moral and social impact of such concepts on the individual.

Chapter Four Discussed man's function in Islam and its educational implications. He is Allah's image on earth. He should be faithful to what he has inherited and to what he has been asked to do.

The researcher concluded his report by recommending further studies based on Islamic resources. He believed that this would help the Moslem to overcome his problems in the light of the teachings of Islam.